



الموقف الديني والعقلي من الكوارث الكونية: بديع الزمان النورسي وفولتير نموذجًا

**Natural Calamaties between Reason and Religion: A case Stuy of Badi' uz Zaman
Nursi and Voltaire**

د. نبيل فولي محمد منجي

أستاذ المنطق والكلام بكلية العلوم الإسلامية، جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية - إسطنبول

Abstract:

This paper intends to study views and positions of two intellectual figures regarding natural calamities, taking two earthquakes as reference and example (Izmeir earth quake of 1953 and earthquake of Erzincan of 1939, and the great Lisbon earth quake of 1755). The two intellectuals this paper intends to study are Turkish intellectual Badi' uz Zaman Nursi and French philosopher Voltaire. It is noteworthy that the difference between the two personalities is not restricted only to the time period they belong to i.e., the 20th and the 18th century of CE respectively. Rather, it extends to the very nature of both intellectuals and their culture and intellectual heritage. For example, Voltaire was an encyclopedic philosopher who had studied variety of cultures and thoughts. He sought to persuade his people to break all the shackles of thoughts which went against or are contradictory to reason and rational thought. As a possessor of a free soul, he aspired to break away from the realities of his time. Nursi, on the other hand, was a Muslim preacher and intellectual who strongly believed in his religion, and its customs and culture and wanted to preserve that for his nation. For this very reason and difference, the comparison between the two turns out to be an enriching and healthy one, a comparison which reflects the psychology, cultural and social orientation and inclinations of both thinkers, both of whom share depth and strength in their thoughts and views, though they might sometimes have reached at contradictory results.

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة موقف كل من العالم التركي بديع الزمان النورسي والمفكر الفرنسي فولتير من الكوارث الطبيعية، مع التطبيق على بعض ما وقع في زمانهما منها (زلزال إزمير 1953 وأرزنجان 1939 ولشبونة 1755). والمفارقة الحاصلة في هذه المقارنة ليست قصرًا على اختلاف عصري الرجلين (القرن الثامن عشر والقرن العشرين)، بل تتجاوز ذلك إلى طبيعة الشخصيتين وثقافتهما، ففولتير رجل موسوعي مثقف ثقافة متنوعة، ويسعى إلى تخليص قومه من كل ما يتناقض مع المعطيات العقلية، ويتمتع بشخصية حرة تريد أن تتجاوز الواقع. وأما النورسي فهو مفكر وداعية مسلم متدين يريد المحافظة على الأصول الثقافية والقيمية للمجتمع. ولهذا خرجت المقارنة ثرية جدًا، وعاكسة للطبيعة النفسية والتوجهات الثقافية لكل منهما، كما امتازت رؤاهما بالعمق مع تناقضهما في النتائج أحيانًا.

تقديم:

الكون هو مسكن الإنسان الواسع، ورفيق دربه الكبير في رحلة الحياة؛ ليس لأنه يوفر له طعامه وشرابه والهواء الذي يتنفسه فقط، ولكن أيضاً لأنه المدى الذي يتجول فيه بحواسه وقواه العقلية والخيالية؛ حيث إن المعلوم الحسي هو المدى الذي يسرح فيه العقل والخيال على السواء. ولا تتمثل علاقة الإنسان بالكون في صلته بأشياءه فحسب، ولكن أيضاً في علاقته بأحداثه؛ سواء منها ما كان مصحوباً بالمنافع؛ كشروق الشمس، وغروبها، وهطول الأمطار، وجريان الأنهار، وما حمل معه الضرر والدمار؛ مثل: الزلازل، والبراكين، والفيضانات. وقد شغل الكون بأشياءه وأحداثه العباقرة والعُباد والفلاسفة، وخطف أبصار كثير من أهل الفكر والفقهاء، وحير عقول الممتازين من بني الإنسان الذين لم يكن موقفهم دائماً إيجابياً تجاه الوجود الكبير وأحداثه.

وفي هذه الدراسة أقدم نموذجاً مقارناً لمواقف المفكرين من أحداث الكون الكارثية؛ بغية إبراز المؤثرات النفسية والثقافية والظروف الحضارية العامة التي تصنع هذه المواقف، واخترت لهذه المقارنة المفكر الفرنسي الشهير فولتير (1694-1778 م)، والمصلح التركي الكبير الأستاذ بديع الزمان النورسي (ت 1960م) رحمه الله، وقد قال الأول⁽¹⁾ في بعض كلامه الذي يملأ مئة مجلد: "لا أعرف ما هو أنفع لإكمال الذوق من المقابلة بين أكابر العباقرة الذين تناولوا عين الموضوعات"⁽²⁾.

ومهما قلنا عن اختلاف واتفاق الرجلين في الآراء والمواقف الفكرية، فإن إيجابية كل منهما تجاه العالم المحيط به واضحة تماماً، وتظهر من خلالها هذه العقول الكبيرة متيقظةً صاحبة تتخذ من مسرحه الطبيعي ميداناً للتجوال الفكري معبأة برصيد نفسي وثقافي شديد الثراء.

¹ - راعيت السبق الزمني في ترتيب الحديث عن الرجلين وأفكارهما، إلا في العنوان.

² - فولتير: رسائل فلسفية، تقديم: جون لاي، ترجمة: عادل زعيتر، الطبعة الأولى، دار التنوير - بيروت 2014، ص- 151.

Voltaire: Rasā'il Falsafiyah, Taqdīm: Jawn Lāī, Tarjumah: 'Adil Za'itar, al-Ṭaba'ah al-'Ula, Dār al-Tanwīr, Beirūt, 2014, 151.

وتأتي هذه الدراسة في المباحث التالية:

- ثقافة فولتير والنورسي.
- المعالم النفسية لشخصيتي فولتير والنورسي.
- موقف فولتير من الكوارث الكونية.
- موقف النورسي من الكوارث الكونية.
- تعقيب.

ثقافة الرجلين:

لِمَا لثقافة الإنسان من تأثير في تشكيل مواقفه وصناعة آرائه، كان من المنطقي أن أبدأ هذه الدراسة بالبحث في الجذور التي صنعت موقف كل من فولتير والنورسي من أحداث الوجود في جانبها السالب الذي يجلب الضرر الظاهر للحياة الإنسانية؛ مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات.

ولا يخفى أن تأثير الثقافة - حتى وإن كانت واحدة - ليس دافعا بالضرورة إلى النتيجة نفسها؛ إذ تخرج الثقافة الواحدة نماذج شتى من المواقف تجاه الظاهرة الواحدة أو الحادثة المعينة (يمكن مقارنة موقف فولتير نفسه من العلم الطبيعي بموقف معاصره جان جاك روسو مثلا)⁽³⁾، بل إن الإنسان الواحد قد يواجه حادثين متشابهين أو شبه

³ - يقول فولتير عن روسو: "يشعر بتأثر أمام الطبيعة، ويخفق قلبه لجمال الشمس في بزوغها أو غروبها، ويجد في الطبيعة برهانا على وجود الله، وليس عند فولتير شيء من هذا" أندريه كريون: فولتير حياته - آثاره - فلسفته ص 91، ترجمة: د. صباح محيي الدين، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت - باريس 1984. وانظر فصل: فولتير وجان جاك روسو (ص 63 وما بعدها) من كتاب: سليم سعدة: فولتير، سلسلة كتاب اقرأ 72، دار المعارف - مصر 1948.

'Andariyyah Ḳarayawn: Fawltīr Ḥayātuhū-Āthārahū-Falsafathu, 91, Tarjumah: Dr. Ṣabāḥ Muḥyū al-Dīn, al-Ṭab'a al-Thāniyyah, Manshūrāt 'Auwīdāt, Beirūt, Barays 1984. Wa Unzur Faṣl: Fawltīr wa Jān Jāka Rawsū (63 wamā ba'dahā) min Ḳitāb 'Iqra' 72, Dār al-Mu'ārif, Miṣr, 1948.

متطابقين في ظروف نفسية متقاربة بموقفين متباينين تماما، ومن هنا فلا بد من الاعتراف بالاشتراك بين العوامل الثقافية والنفسية وظروف الواقع بحساباته وتعقيداته وبين الجانب الإرادي من الإنسان في صناعة مواقفه الفكرية.

في كلية "لوي لو جران" (لويس الكبير) اليسوعية تعلّم فولتير "ما كان يستطيع أن يتعلمه الفتى في ذلك العهد من الأدب الكلاسيكي والتاريخ والعلوم والفلسفة"⁽⁴⁾، ومنذ ذلك الحين لم تنفصل الثقافة الدينية المسيحية عن شخصية الرجل إطلاقا، وإن كان له نقد عريض لهذه الثقافة، ونقد طويل لممارسات الممثلين الدينيين لها؛ سيسبب له كثيرا من المضايقات والأذى الذي افتتح بدخوله سجن الباستيل وهو في صدر شبابه.

وفي تفصيل للمناهج التي كان يدرسها الطلاب في المدارس اليسوعية في القرن الثامن عشر؛ التي كان فولتير من طلابها، يقول بعض المؤرخين: "على الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات روما القديمة في نصوصها الأصلية... وأخيرا تلقى الطالب مناهج قاسية في المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى... وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار، وأن التعليم كان نظريا إلى حد كبير، ولا يُعَدّ للحياة العملية".⁽⁵⁾

وقد كانت الكنائس في هذا الوقت هي التي تتولى الإشراف على كثير من مؤسسات التعليم في فرنسا، وكانت ثم كنائس معينة تركز كثيرا من جهودها في هذا المجال؛ مثل الآباء اليسوعيين والبنديكتيين وغيرهم، وكان حظ فولتير مدرسة من هذا النوع اليسوعي. وقد رصد ول ديورانت تأثير المدارس والمناهج التي درسها فولتير وجيله في صناعة عقولهم،

⁴ - كريون: فولتير ص 11.

Ḳarayawn: Fawltir, 11.

⁵ - ول وإيريل ديورانت: قصة الحضارة 36/63-64، ترجمة: محمد علي أبو درة، مراجعة: علي أدهم، دار الجليل - بيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس.

Will Ariel aiayrial Durānt: Qiṣṣah al-Hadārah 36/63-64, Tarjumah: Muḥammad 'Alī 'Abū Darah, Murāja'a: 'Alī 'Adham, Dār al-Jayl- Beirūt, Wa al-Munaṣamah al-'Arabiyyah lil Tarbiyyah wa al-Thaqābah wa al-'Ulūm, Tawnas.

فذكر أن دراسة الكتب الوثنية الرومانية أثار في نفوسهم بعض الريبة في العقيدة المسيحية، كما أن دراسة المنطق والفلسفة وسعي المعلمين إلى تنمية ذكاء تلاميذهم وتشجيعهم لهم على المناقشة والتحدث وترتيب أفكارهم، جعل من التفكير والاستنتاج والتعليل علامة مميزة للعصر.⁽⁶⁾

ولا يخفى أن التعليم ليس فقط معلومات يتلقاها الإنسان، وإنما هو أيضًا معلمون يؤثرون في شخصيته، ومناهج تفكير وحياته يتلقاها عن البيئة والأشخاص، وملكات وميول يكتسبها من هؤلاء جميعًا. وقد ذكر فولتير أستاذه الأب بوريه باعتباره ممن أثروا فيه بقوة؛ "فإن أحدا من المعلمين - كما يقول - لم يجب تلاميذه في الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب".⁽⁷⁾ كما أن امتياز هذه البيئة التعليمية بالموسوعية قد بقي تأثيره في فولتير الذي كان يقرأ بتوسع وعمق في الدين والفلسفة والأدب والتاريخ والفيزياء والفلك، ويبدو تأثير هذا واضحا جدًا في تراثه الغزير الذي بقي لنا، وأولى من ذلك أن نذكر أن هذه البيئة ربطت فولتير بالمعرفة، وشدت وثاقه إلى الكتاب شدًا محكمًا، حتى عاش ومات بين الكتب مؤلفًا وقارئًا.

كذلك فإن الوظيفة الاجتماعية النشطة للكنيسة التي كانت ترعى التعليم الذي تلقاه فولتير قد عوّدت محالطة البيئات والأوساط التي وجد نفسه بينها ضمن شبكة اجتماعية واسعة؛ خاصة من الطبقات الأرستقراطية التي تهوى الفن وتتعلق بالثقافة، وقد ساعد هذا - مع موهبته - على رواج أعماله الأدبية والمسرحية التي مُثِّلت على مسارح باريس في حياته عشرات المرات. كما أن هذه البيئات تشهد في العادة حالات مهمة من التثاقف وتبادل المعرفة والأخبار العامة والخاصة، إضافة إلى ما يجري فيها من مجادلات ومناظرات تستثير العقول، وتنشئ فيها جديد الأفكار.

⁶ - ديورانت: قصة الحضارة 36/63-64.

Durānt: Qiṣṣah al-Hadārah 36/63-64.

⁷ - ديورانت: قصة الحضارة 11/35، ترجمة: فؤاد أندراوس.

Durānt: Qiṣṣah al-Hadārah 11/35, Tarjumah: Fu'ad 'Andrāws.

ومن الجوانب الاجتماعية المهمة التي رُصِدَت في مسيرة الفكر في تلك المرحلة من تاريخ فرنسا: تأثير المرأة؛ فقد "كان عصرًا مشرقًا زاهيًا؛ لأن النساء تألقن فيه، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال مما لم يسبق له مثيل. وبفضلهن أهدب الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح... وبفضل النساء أصبح النشر الفرنسي أكثر إشراقًا ووضاءة من الشعر".⁽⁸⁾

ولم يكن فولتير مجرد رجل موسوعي يعتني بأكثر المعارف التي يتداولها أهل عصره، بل هو رجل واقعي يعيش في قلب الواقع النابض بالحياة؛ لذا وظف كتاباته لمعالجة مشكلات الواقع وقضاياها الساخنة، وتأثر بهذا وأثر فيه على نطاق واسع، وأخذ من فضائل عصره كما غاص في أحواله.

ولما كان فولتير مفكرًا لا يميل القراءة والكتابة، ولا ينقطع عن القلم والكتاب والمطبوعات والمخطوطات، ولا ينفصل عن الواقع الحي المحيط به، فقد كان فكره يتطور، ويبدو ذلك في موقفه من الكنيسة، فقد كان يكتب في البداية ناقدًا لها نقدًا لاذعًا، لكنه مبطنًا بالحرص على بقائها واستمرارها مع إصلاحها. ومع استمرار المواجهة الغاضبة والقاسية جدًّا من الكنيسة للعلم والفكر الجديد، فقد تحول فولتير إلى ناقد شديد النقمة على هذه المؤسسة الدينية الغربية العتيقة، حتى رأى أن اقتلاع سلطة رجال الدين تمامًا، وتسليم قياد الكنيسة ورجالها للدولة هو الحل لتحقيق الاستقرار في بلاده.⁽⁹⁾

⁸ - ديورانت: قصة الحضارة 36/88.

Durānt: Qiṣṣah al-Hadārah 36/88.

⁹ - انظر له: كنديد ص 99، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هندراوي سي آي سي - المملكة المتحدة 2018، ورسالة في التسامح ص 28، و31، ترجمة: هنريت عبودي، الطبعة الأولى، دار بترا للنشر والتوزيع - دمشق 2009.

Ḳandīd, 99, 'Aādīl Za'ītar, Mu'assasah Handāwī C.I C. al-Mumliḳah al-Mutahidah 2018, wa Risālah fi al-Tasāmuh, 28-31, Tarjumah: Hanriyyat 'Abūdī, al-Ṭaba'ah al-'Uawla, Dār Bitarā Lil Nashr Wa al-Tawzī', Damishq, 2009.

ومما تطور في فكر فولتير كذلك: موقفه من الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام؛ إذ تحول من ناقد مستهزئ إلى مباح يثني على بعض تعاليم هذا الدين وتشريعاته الحكيمة⁽¹⁰⁾، وإن كان يبدو أنه كان يحجم عن الإكثار من الثناء على الإسلام خوفًا من التوجهات الكنسية التي تحمل له عداوة مبدئية منذ وقت مبكر من تاريخ الإسلام، وهو أمر عززته الحملات الصليبية من قبل أكثر وأكثر.

وأما ثقافة الأستاذ الكبير بديع الزمان سعيد بن ميرزا النورسي، فقد درس في البداية - مثل صاحبه الفرنسي - العلوم التقليدية التي اعتاد أمثاله دراستها في بيئته (الكردية الشافعية) ذاك الزمان، وتمثل في شتى فروع المعرفة الشرعية واللغوية والعقلية التي عاجلها المسلمون كما استقرت صورتها عند المتأخرين، وهو أمر اشتهرت به في زماننا المدارس الدينية في الهند وباكستان والمحاضر الموريتانية مع فروق ظاهرة بينها لم يتسبب فيها المذهب الفقهي ولا الاتجاه الكلامي وحده، ولكن أيضًا زيادة الاعتماد على مصادر وكتب أقرب أو أبعد زمنيًا، وكذلك تقليص المقررات بدعوى تغير الزمان وضعف الملكة العلمية، واستعمال لغات أخرى في التدريس إلى جانب اللغة العربية، وربما على حسابها بالكلية. ومن الكتب التي درسها النورسي - بعد أن حفظ القرآن في سن مبكرة - "جمع الجوامع" للتاج السبكي في أصول الفقه، وشرح السيد الجرجاني على "المواقف في علم الكلام" لعضد الدين الإيجي، وشرح ابن حجر الهيتمي على "منهاج الطالبين" للنووي في الفقه الشافعي، و"مطالع الأنوار في المنطق" لأبي بكر الأرموي، وغيرها.

¹⁰ - كتب فولتير مسرحيته "محمد" ليهجو بها رجال الكنيسة، ويبدو أن هذه كانت طريقة معتادة في الكتابة حينئذ؛ فقد كتب كرييون الابن قصته "المتزلق على السطح" سنة 1734، ومع أنه اختار اليابان مكانا لأحداث القصة، "لكنها كانت نقدا لاذعا أو هجاء صريحًا للكنيسة والدولة في فرنسا" قصة الحضارة 36/ 135. كما أن الراهب المتمرد شارل كاستل عرّض في مقالة له ضد الإسلام بالكاثوليكية، و"ألحق بها أذى مأكرا... حيث إن ما أورده فيها من حجج - مثل فولتير في كتابه "محمد" - يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية" قصة الحضارة 36/ 141. وقد كان هذا أسلوبا ظالما بالتأكيد في تناول الغربيين للحقائق والمفاهيم الإسلامية، حيث كان جزءا من الصورة النمطية المنحرفة التي رُسمت للدين الخنيف وتاريخ أصحابه في المخيلة الغربية. انظر مثلا توظيفه الفني لما ادعاه من التناقض عند المسلمين بين محافظتهم على الصلوات "التي أمر محمد بأدائها" ودمويتهم وقسوتهم البالغة: كنديد ص 55.

كل هذا كان معتادًا من كثير من طلبة العلم طوال قرون، إلا أن ما ميّز بديع الزمان في هذه المسألة على أقرانه هو أنه كان سريع القراءة والفهم لما يقرأ؛ حتى كان يقرأ في اليوم والليلة أحيانًا أكثر من مئتي صفحة ويستوعبها تمامًا، وحفظ متونًا كثيرة في العلم، واستظهرها استظهار الإحاطة والفهم في زمن قصير وفي مرحلة مبكرة من حياته، وتثبت المحيطون به من درايته وثبات قدمه في العلم باختبارات وأسئلة أعدوا وتجهزوا لها. وأضاف إلى ذلك قراءات في العلوم التجريبية والإنسانية الحديثة⁽¹¹⁾؛ مثل: التاريخ والجغرافيا والرياضيات والجيولوجيا والفيزياء والكيمياء والفلك والفلسفة، فكان يحفظ في كل علم كتابًا مختصرًا حتى يلم بأصول العلم، ولموهبته في الفهم والحفظ كان يناظر المعلمين المختصين في هذه العلوم ويغلبهم، مما أذهل الناس منه ومن فهمه وعلمه.⁽¹²⁾

ولا يخفى أن هذا التكوين المعرفي قد أعطى شخصية النورسي بعدًا ثقافيًا بدت آثاره في مؤلفاته وطريقته التعليمية، وهذا ما لاحظته من ترجموا لحياته، حيث يقول معرّب أعماله الأستاذ إحسان قاسم الصالحي: إنه "وضع طريقة خاصة به في التدريس تختلف عن الطرق المتبعة آنذاك في المدارس الدينية، استخلصها من العلوم الحديثة التي استوعبها ومن ممارسته تدريس الطلاب، ومن أساليب الدراسة في المنطقة عامة آخذًا بنظر الاعتبار متطلبات العصر الحاضر وحاجاته الملحة. وترتكز طريقته هذه على إعطاء الحقائق الدينية ممتزجة بالعلوم الحديثة بأسلوب قريب لمدارك أبناء هذا العصر وإثباتها بأوضح أسلوب وعرضها بما يلائم تفكيرهم".⁽¹³⁾

ومن معالم ثقافة النورسي التي تهمنا في هذا السياق بشكل أساسي كذلك: ما نتج عن معارفه الإسلامية من إيمان مطلق بالقدر، وأن الإنسان مختار مع تمام سلطان الله على خلقه، وقد قال في هذا وكأنه يتحدث عن نفسه: "إن

¹¹ - انظر: بديع الزمان النورسي: سيرة ذاتية ص 515، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، الطبعة السادسة، شركة سوزلر - القاهرة 2011.
Badī' al-Zamān al-Nawrasī: Sīrah Dhāṭiyah, 515, 'I'dād wa Tarjumah: Iḥsān Qāsim al-Ṣālahī, al-Ṭaba'ah al-Sādisah, Sharīkah Sūzlar, al-Qāhirah, 2011.

¹² - السابق ص 68 وما بعدها، وص 83 و85.

Al-Sābiq, 68, wama Ba'dahā, wa Ṣafḥat: 83-85.

¹³ - السابق ص 86.

الذي يتحدث عن القدر والجزء الاختياري (يعني الجانب الإرادي للإنسان)، إن كان ذا إيمان كامل مطمئن القلب، فإنه يفوض أمر الكائنات كلها - ونفسه كذلك - إلى الله سبحانه وتعالى، ويعتقد أن الأمور تجري تحت تصرفه سبحانه وتديره؛ فهذا الشخص يحق له الكلام في القدر والجزء الاختياري؛ لأنه يعرف أن نفسه وكل شيء منه سبحانه وتعالى، فيتحمل المسؤولية مستندًا إلى الجزء الاختياري... فيقدس ربه وينزهه، ويرضخ للتكليف الإلهي، ويأخذه على عاتقه⁽¹⁴⁾، لكنه يرى أن التوفيق التام بين القدر الإلهي والإرادة الإنسانية مسألة "خافية علينا"⁽¹⁵⁾، فكأنه عد ذلك من الخوض في سر القدر الذي نهي السلف عن الخوض فيه، واكتفوا بإثبات السلطان التام لله على كل شيء، مع وجود إرادة واختيار لدى الكائن البشرى تلائم كونه مخلوقًا مسئولًا.

وكانت نتيجة رؤية النورسي الدينية أن تشكلت مدرسته الفكرية، و"كان أبرز معالمها - كما يقول بعض الباحثين -: الاستفادة قدر الإمكان من العلوم والتكنولوجيا الغربية في إطار الخصوصية الإسلامية، والسعي لبناء شخصية المسلم المثقف، وتقوية الوعي الذاتي لدى المسلمين كأساس لبناء المجتمع وتحريره من سيطرة الأفكار المادية والعلمانية واللا دينية، وجعله قادرًا على مواجهة تحديات العصر الحديث"⁽¹⁶⁾.

ومع أن النورسي لم يكن مهتمًا بالعلوم الحديثة اهتمام سلفه فولتير، إلا أن التقدم الزمني وما رافقه من تقدم علمي أكبر قد منح المفكر التركي في هذه الناحية فرصًا أكثر من صاحبه الفرنسي، وقد بدأ أثر هذه العلوم واضحًا في

14 - النورسي: الكلمات ص 536.

Al-Nawrasī: al-Kalimāt, 536.

15 - السابق ص 537.

Al-Sābiq, 86.

16 - مصطفى أوردور: محطات بارزة من التاريخ المعاصر وأثرها في حياة النورسي ومدرسته الفكرية ص 10. بحث منشور في مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد 15، يناير 2017، السنة الثامنة.

Muṣṭafā 'Adardawr: Muḥattāt Bārizah min al-Tāriḫ al-Mu'āṣir wa 'Athruhā fi Ḥayāt al-Nawrasī wa Madrasatihi al-Fikriyyah, 86. Baḥath Manshūr fi Majallah al-Nūr lil Darāsāt l-Ḥadāriyyah wa al-Fikriyyah, al-'Adad 15, Yanāir 2017, al-Sanah al-Thāminah.

تأملات النورسي الكونية التي امتازت بالبرقة البالغة، وأخذت في كتابته لها صيغة دعوية، فهو مثلاً حين كان منفياً في منطقة مرتفعة ببلاده تخيل الأرض (التي علّمه علم الفلك الحديث أنها تتحرك) سفينةً تتحرك به، وأنه يمر بصفحات مختلفة من الوجود حسب موقع الأرض⁽¹⁷⁾، كما بدا تأثير العلوم الكونية في كثير من أفكار فولتير عن وجود الله تعالى؛ إذ "إن جميع صوت الطبيعة - كما يقول - ينادي بوجود إله واحد بقوة"⁽¹⁸⁾، كذلك سيبدو تأثير هذه الثقافة في موقف الرجلين من الكوارث التي تقع في الكون ومن موضوع القدر عمومًا.

ومع كل ما سبق من تحليل لثقافة الشخصيتين اللتين تعنتي بهما هذه الدراسة، فيجب أن ندرك أن القرن الثامن عشر فرنسيًا كان يختلف كثيرًا عن القرن العشرين تركيًّا، فقد كانت فرنسا حينئذ في الفصول الأخيرة من حرب العقل على الكنيسة وسلطتها والملكية وتقلباتها قبيل الثورة الضخمة التي شهدتها الدولة الأوربية الكبيرة (قامت الثورة الفرنسية بعد وفاة فولتير بأحد عشر عامًا فقط)، وقد ظهرت صورة الدين (المسيحي المتصدر وقس عليه غيره) حينئذ من خلال ممثليه باعتباره عقبة في وجه التقدم، فكان لا بد من اجتياحه واجتياح سلطة من يمثله فكريًا وماديًا.

وقد قام فولتير حينئذ بجانب كبير من مهمة الاجتياح، ليس من خلال ما كتب فقط، ولكن أيضًا من خلال تشجيعه للآخرين على الكتابة في هذا الجانب، والحملة ببسالة على الكنيسة ورجالها، ودعوته إلى انضواء الكنيسة الكامل تحت سلطة الدولة، ودفع المؤسسة الدينية لما يجب عليها من ضريبة، وغير ذلك. وقد كان موقف فولتير من زلزال لشبونة جزءًا من المواجهة الشرسة للعقل مع المسيحية الغربية ورجال دينها، وستتضح عناصر ذلك في أوانه من هذه الصفحات إن شاء الله.

17 - انظر: بديع الزمان النورسي: المكتوبات ص 18 وما بعدها، ترجمة: إحسان قاسم صالح، الطبعة السادسة، شركة سوزلر - القاهرة 2011.
Badī' al-Zamān al-Nawrasī: al-Maḳtūbāt, 18, wama Ba'dahā, Tarjūmah: Iḥsān Qāsim al-Şāleḥī, al-Ṭaba'ah al-Sādisah, Sharīkah Sūzlar, al-Qāhirah, 2011.

18 - انظر مثلاً: فولتير: رسائل فلسفية ص 179.

Fawlṭīr: Rasā'il Falsafīyyah, 179.

وأما تركيا القرن العشرين؛ خاصة منتصفه الأول الذي لم يعمّر الأستاذ سعيد النورسي بعده طويلاً، فلم تكن الدولة التاريخية العتيقة التي بناها العثمانيون، بل كانت بقايا صغيرة منها قلقة جغرافياً، ولا تزيد مساحتها على ثلثي مليون كيلو متر مربع إلا قليلاً، كما كانت في خصومة عنيدة مع الدين وشعائره، حتى كادت تلفظه على المستوى الرسمي تماماً. وقد شهد النورسي جانباً كبيراً من هذا التحول بأمر عينيه⁽¹⁹⁾، ورأى أن سقوط القوة المادية للإسلام جاء سقوطاً شبه تام، فاختار المراهنة على القوة الذاتية والمعنوية للإسلام كما فعل المجدد الهندي الكبير أحمد بن عبد الحلیم السرهندي قبله بما يقارب ثلاثة قرون ونصف القرن، ورأى النورسي أن المواجهة المادية لن تأتي بنتيجة إيجابية في هذه الظروف؛ لذلك عارض الشيخ "سعيد الكردي" في خروجه على الدولة، ورفض الانضمام إليه.

ولا ينبغي أن تفهم هذه المسألة على أن الشيخ اعتزل الناس والشأن العام، ونجا بنفسه تاركاً الإسلام تضيع معاملته من بيئة عُمر فيها بعزة دهرًا طويلاً، بل اعتنى بأن يبقى الإسلام في بلاده فكراً واعتقاداً قدر طاقته، فربى وعلم، وكتب وألف، وواجه ما استطاع من محاولات اقتلاع الإسلام من الأرض والنفس والعقل، وكأنه راهن على أن الزمان سيُقي على الأصلح، وأن الغناء ستجرفه الحياة بعيداً، أو تتركه مهملاً على حافتي النهر المنساب.

المعالم النفسية لشخصية فولتير والنورسي:

يبدو لي فولتير شخصاً قلماً جداً، لكنه يجد ذاته بقوة في المهمات البطولية الكبيرة. وتلك جمعة ثقيلة على نفس أي إنسان، فالرجل ضعيف الصحة، ومتبرم شاك من أشياء كثيرة، لكنه بطل فكري مغوار يقوم بمهمات فكرية واجتماعية

¹⁹ - كتب عنه الأستاذ عثمان يوكسل في حياته يقول: "شيخ عاصر ثلاثة عهود، وخبر حوادث الزمان، هي: نظام المشروطية، وحكومة الاتحاد والترقي، والجمهورية. عهود زاخرة بالتغيير والانقلاب والانهدام، ما من شيء إلا وأصابه الهدم، غير رجل واحد ظل منتصباً..". النورسي: سيرة ذاتية ص 517.

تتسم بكثير من الجسارة.⁽²⁰⁾ وقد فسر بعضهم سلوكه المضطرب بأنه شخص ذو حساسية مفرطة⁽²¹⁾، لكن دعنا نكتشف هذا من حياته وأفكاره؛ لأن الإنسان عبارة عن ثروات نفسية وبدنية لو أنفقت في أماكنها بتوازن مناسب لأدت إلى كثير من التغيير الإيجابي في هذه الحياة، ولرقت أحواله النفسية والمادية بتوازن مناسب يحفظها من ألوان الخلل المختلفة التي يعاني منها إنسان عصرنا بالذات. هل كان فولتير يغطي قلقه بهذه الانشغالات الفكرية والاجتماعية الجسورة، أو كان يتقدم لشغل فراغات كبيرة تركها غيره عن عجز أو إهمال؟

إن الإنسان في رأي فولتير - كما يبدو من مجمل آرائه وسيرته - يجب أن يملأ فضاءه الاجتماعي بالنشاط والعمل والحركة؛ لأن الله الذي خلقه أمدّه بآلات هذه وظيفتها، وأولها العقل⁽²²⁾، وتعطيها عن مهمتها أكبر حماقة يمكن أن يرتكبها إنسان؛ لذا يرى أن الإنسانية بهذه الآلات التي تملكها ليست في حاجة إلى رسالة نبوية ولا رجال دين، ويكفيها في هذا أن تؤمن بالله الخالق، وتنسجم مع قوانين الوجود الذي تحيا فيه، وتتجنب الإخلال بالنواميس التي يجب أن ينشط الإنسان بقوة في اكتشافها ورفع اللثام عنها.⁽²³⁾

ولم يكن الرجل مؤمناً راسخ الإيمان، ولا كان ملحدًا متواصل الإلحاد، بل كان يمر بتقلبات وتحولات، والعودة من الإيمان وإليه من وقت إلى آخر⁽²⁴⁾، حتى حار دارسوه في تفسير هذا السلوك منه⁽²⁵⁾. وهو ما يكشف عن صراع

20 - انظر مثلاً دفاعه عن المظلومين في قضية كالاس: فولتير: رسالة في التسامح.

Fawltîr: Risâlah fî al-Tasâmayh.

21 - أندريه كريون: فولتير حياته... ص 7.

Andariyyah Karayawn: Fawltîr Hayâtuhu...., 7

22 - انظر رأيه في العقل: أندريه كريون: فولتير ص 110.

Andariyyah Karayawn: Fawltîr, 110.

23 - انظر: كنديد ص 80، وأندريه كريون: فولتير ص 117.

Unzur: Kandîd, 80, Wa 'Andariyyah Karayawn: Fawltîr, 117.

24 - انظر مثلاً في إيمانه بالله: رسائل فلسفية ص 179، وأندريه كريون: فولتير ص 56، و60-61، و110، و111، وغيرها. وفي خلود الروح انظر: رسائل فلسفية ص 97، وفي مناجاته لله انظر: رسالة في التسامح ص 169. إلا أنه متردد بين القول بأزلية العالم والقول بحدوثه؛ انظر: كريون ص 68، 113، كما كانت تنور في نفسه شكوك إلحادية أحياناً كما سيأتي.

للافكار وقع لهذا العقل الكبير في أجواء لا يجد فيها مَعْلَمًا ثابتًا واضحًا يمكن التمسك به، أو سلوك الطريق استهداءً به، عكس ما نجد عند النورسي المفكر المسلم. أما نفسية النورسي، فهو رجل يمتاز بالصلابة المفرطة، والثبات في خضم الصعوبات بحيث يظل مسيطرًا على تفكيره وأعصابه حتى في اللحظات العصيبة جدًا؛ كالحروب والمحاکمات الجائرة⁽²⁶⁾، وجمع إلى هذا رفضه للإهانة، حتى قال عن نفسه: "أنا لا أطيق ذلا ولا إهانة بفطرتي وجبلتي، العزة والشهامة الإسلامية تمنعني بشدة من هذه الأحوال، فإذا تعرضت إلى مثل هذه الحال، لا أطأ رأسي مهما كان الذي يواجهني".⁽²⁷⁾

ولم تمنعه عزة نفسه وصلابته وتمسكه بما يرى من آراء وأفكار من أن يتحول عما يبدو له غير صحيح، حتى شهدت حياته التحول المعروف عنه من "سعيد القديم" إلى "سعيد الجديد". كما لم تمنعه صلابته من الصبر على الاستفزات التي كانت توجه إليه بقصد إخراجها عن مشروعه التعليمي التربوي إلى استخدام العنف في غير محله، حتى قال في إحدى محاكماته سنة 1952: "لقد لقينا إهانات ظالمة، لكن لم نُنسَقْ مع عواطفنا، ولم نفتر لحظة عن العمل في بناء الأمن والنظام في القلوب، وخدمة الإيمان والقرآن، وإنقاذ الساقطين في الفوضى نتيجة الغفلة".⁽²⁸⁾

وهذا نابع من جمعه بين الصلابة والتواضع، وقد وصفه محاميه مهري حلاو في إحدى المحاکمات بقوله: "إن مؤلف رسائل النور أكثر المؤلفين والمحررين تواضعًا، وهو أعدى أعداء الشهرة والكبر، معرض عن متاع الدنيا، فلا مال ولا

Rasā'il Falsafiyah, 179, Wa 'Andariyyah Karayawn: Fawlfir, 56,60-61,110-111, wa Ghayrihā, wa fi Khalūd al-Rawḥ, Unzur: Rasā'il Falsafiyah 97, wa fi Manājātihū Allah, Unzur: Risālah fi al-Tasāmāyḥ, 169, 'Illa 'Annahu Mutaradad bayn al-Qawl Ba'zaliyyah al-'Alim wa al-Qawl Biḥadwthah; Karayawn, 68,113.

²⁵ - انظر: ديورانت: قصة الحضارة 38/165-166.

Durānt: Qiṣṣah al-Hadārah 38/165-166.

²⁶ - انظر: موقفه من القائد الروسي حين كان أسيرًا: سيرة ذاتية ص 157-158، و523، وكذلك موقفه من مصطفى باشا: سيرة ذاتية ص 77.

Sīrah Dhātiyyah, 157-158.523, 77.

²⁷ - النورسي: سيرة ذاتية ص 516.

Al-Nawrasī: Sīrah Dhātiyyah, 516.

²⁸ - نفس المرجع 504.

ibid, 504.

شهرة ولا سلطة... فهو يعيش من أجل خدمة القرآن والإيمان... يقف أمامكم منتظرًا قراركم العادل بكمال الصفاء والإخلاص، رجل فريد في عصره، لم يتدن في عمره مطلقًا لكلام خلاف الصدق".⁽²⁹⁾

ووصفه أحد الكتاب الأتراك الذين عايشوه بعض الوقت في مقال له قائلًا: "يتحدث الأستاذ بلهجته الخاصة في المسائل العلمية الرفيعة، فنجد حرارة في أنفسنا من جلادة وحشمة أحاديثه، ذكاء فطري غير معتاد وموهبة إلهية، تظهر قدرة ذكائه وعظمته إزاء أشد المسائل تعقيدًا، عقل دائم العمل والفكر، لا يشتغل بالنقل كثيرًا، فمرشده القرآن، وهو نبع فيضه وذكائه... صاحب رأي سديد أشبه بمجتهد أو إمام، وقلبه مليء بإيمان راسخ أشبه بإيمان صحابي، وفي روحه شهامة كشهامة عمر... ضعيف البنية، لكنه ذو مهابة وحشمة، عيناه تشعان نورًا مثل الشمس، ونظراته نظرات سلطان؛ أغنى سلطان في عالم المعنى، مع أنه أفقر الناس في الدنيا مالا".⁽³⁰⁾

وقبل أن ننطلق مع الرجلين الكبيرين في هذه السياحة الفكرية، لا بد من الإشارة إلى أنه كلما دعت الناس داهيةً ذهبت التحليلات في فهمها وتفسيرها كل مذهب، فمن قائل إنها عقوبة للناس على ظلمهم وفسادهم، وقائل إنها ابتلاء للمؤمنين واصطفاء لبعضهم شهداء، وقائل بأنها قوانين كونية يفسرها العلم التجريبي وحده ولا علاقة لها بعقاب البشر ولا مكافأتهم، أو أن الأقدار تحبب خبط عشواء فلا حكمة ثمّة ولا غاية، وغير ذلك. والنورسي وفولتير كانا في مجتمعهما من علو الشأن وذيوع الصيت بحيث لا يمكنهما أن يتركا الناس تتخبط في هذه القضية الحساسة بدون الإدلاء برأيهما فيها، وهذا ما سنعرض له فيما بقي من صفحات هذه الدراسة بعون الله تعالى.

موقف فولتير من الكوارث الكونية:

²⁹ - نفس المرجع 506.

ibid, 506.

³⁰ - نفس المرجع 513-514.

ibid, 514-513.

أخذ تعبير فولتير عن موقفه من زلزال لشبونه الذي وقع سنة 1755، وأدى إلى دمار هائل في العاصمة البرتغالية، مع وفاة عشرات الآلاف من الناس كانوا قد اجتمعوا في الكنائس وأماكن الاحتفال في أحد الأعياد المسيحية – أخذ هذا التعبيرُ الشكل الأدبي نثرًا وشعرًا، فكتب فيه قصيدته الطويلة "كارثة لشبونه"، وروايته الشهيرة "كنديد"، وضمنهما مذهبه في وجود الشر في العالم.

وقد تجاوز فولتير في هذين العملين الأدبيين الحادثة نفسها إلى تقديم نظرة عامة حول رأيه في مذهب التفاؤل الذي كان سائدًا بين الناس في عصره، ويرى هذا المذهب أن كل شيء حسن وعلى ما يرام، وأن العالم على أتم خِلقَة وأفضل هيئة ممكنة. كما سعى المفكر الفرنسي إلى تقديم تفسير معقول في نظره لوجود مثل هذه الكوارث والشورور في مسار الكون الذي خلقه الله تعالى.

ولم يكن من الممكن أن يعرض فولتير رأيه في موضوع الكوارث الكونية بدون أن يعرض الآراء الأخرى حوله، ويفندها، فيقول في قصيدته "كارثة لشبونه" مخاطبًا من يزعمون أن الذين هلكوا في الزلزال إنما أخذوا بذنوبهم وفسادهم: "...هل ستقول: إن الله انتقم منهم، وإن موتهم هو ثمن على جرائمهم؟!"، ثم رد على هذا بقوله: "أيُّ جُرم وذنوب اقترفه الطفل الذي يرقد على ثدي أمه يسيل منه الدم؟! وهل انغمست لشبونة في الرذائل أكثر من لندن أو باريس اللتين تعيشان في سعادة؟! الحقيقة أن لشبونة محطمة، وأن الناس يرقصون في باريس!" فلو تعلق الكارثة بالذنب فلا ذنب للطفل، كما أن ثمة من المدن ما هو أشد فسادًا من لشبونه، فلم تكن الكارثة من نصيبها؟!

ثم عرض في القصيدة لرأي آخر يرى معتنقه أنه لا شر أصلاً، وما يراه الناس شرًا، فهو ضروري لوجود الخير ويتنظم الكون، فقال في شعره ما ترجمته: "تقولون: كل شيء على ما يرام، وكل شيء ضروري!"، ثم ناقشهم بقوله: "هل تعتقد أن هذا الكون بدون هذه الهاوية التي ابتلعت لشبونة سيكون أسوأ حالاً؟ هل أنت متأكد من أن الصانع

العظيم، خالق كل شيء والعليم به، لا يمكن أن يضعنا في هذا العالم البائس بدون براكين تغلي تحت أقدامنا؟ هل يضع هذا حدًا لسلطته العليا؟ هل يمنعه من أن يكون رحيمًا؟".

وقد كان فولتير حريصًا في هذه القصيدة على أن يبدي الإجلال لله تعالى خالق الوجود، إلا أنه يعارض نسبة الكوارث إلى حكمته، والقول بأن وراءها غاية للإله. وهو في هذا يميل إلى نفي القدر واللفظ الإلهيين⁽³¹⁾، ويعطي للسعي الإنساني قيمته في إدراك الأهداف التي يسعى إليها، وتحمل ما يصادفه من صعوبات وشور لا يمكن أن يخلو هذا العالم الناقص منها. كما يرفض فولتير القول بأن مثل هذه الكوارث ضرورية لبقاء الأرض، وأن ما يصيب بعض الناس من نكبات هو خير لهم، وإن لم يشعروا: "من قال للحزاني من سكان هذه الشواطئ المقفرة: لقد سقطتم وتمم بسلام؛ لقد دمرت بيوتكم من أجل خير العالم؛ الأيدي الأخرى ستعيد بناء قصورك المدمرة (يا لشبونه)، سوف يولد أناس آخرون من تحت أنقاض جدرانك، سيصبح الشمال ثريًا من خسارتك الفادحة، وبالنسبة للقانون العالمي، فإن كل مشاكلك ستعودين بعدها للأفضل؟!". ولم يخرج فولتير عن هذه الأفكار تقريبًا في روايته الشهيرة "كنديد"، إلا أنه عالج المشكلة بشكل أكثر تفصيلاً، فقد ظهرت فيها شخصيات تتبنى وجهات النظر المختلفة فيما يصيب الإنسان من شر في هذه الحياة؛ وذلك كما يلي:

- مذهب التفاؤل:

³¹ - لا أستطيع أن أزعم أنه ينفي اللطف الإلهي تمامًا، لكنه يعول كثيرًا على الجهد البشري، والسعي إلى تحصيل المنافع وتجنب المضار بالجهد الإنساني، وما يدل على أنه لا ينكر اللطف تمامًا هذه المناجاة الرقيقة التي سجلها في إحدى رسائله قائلا: "لم أعد إلى البشر أتوجه، بل إليك يا رب جميع الكائنات والعوالم والأزمان، فإن جاز لمخلوقات ضعيفة تائهة في فضاء العالم اللامحدود، وغير منظورة من قِبَل بقية الكون أن تتجرأ فتطلب منك شيئًا، أنت يا من رسم كل شيء، ويا من قضاؤك ثابت سرمدي، فهو أن تتلطف وتنظر بعين الرحمة والشفقة إلى الأخطاء والضلالات المترتبة على طبيعتنا، ولا تسمح بأن تكون هذه الأخطاء والضلالات سبب هلاكنا": رسالة في التسامح ص 169.

وقد عبرت عنه شخصية المعلم المتفلسف "بنغلوس" الذي خاطب كنديد في أحد حوارات الرواية قائلاً: "يجب عليك أن تذهب إلى أن كل شيء حسن، وأنه على أحسن ما يكون، وإلى أن الهيولى والمادة اللطيفة والانسجام المقدر والذرات الحية أروع ما في العالم، وأن ليينتز رجل عظيم حتى عند من لم يفقهوه!".⁽³²⁾

وهذه العبارة تلخيص لمذهب الفيلسوف الألماني الشهير ليينتز الذي يقول: "ليس في العالم يباب (خراب) ولا عُقم ولا موت، ليس فيه فوضى ولا اضطراب، إلا في الظاهر"⁽³³⁾، و"لما كانت أفكار الله تحتوي على عدد لا حصر له من العوالم الممكنة التي يستحيل أن يوجد منها إلا عالم واحد، فيلزم أن يكون هناك سبب كاف لاختيار الله، جعله يفضل عالمًا بعينه على غيره"⁽³⁴⁾، "ويلزم عن كمال المبدع الأعظم أن لا يكون نظام العالم هو أكمل نظام ممكن فحسب".⁽³⁵⁾

هذا المذهب خاصمه فولتير محاصمة شديدة، وهزأ بأصحابه، حتى ذكر بعض المؤرخين لحياته وأفكاره أن القول بأن عالمنا هو خير العوالم الممكنة كان يستثير "سخرية فولتير إلى أقصى حد، فهو يجد من المستحيل أن يقول إن كل شيء على ما يرام أمام الزلازل والطاعون والكوليرا والمجاعة والمصائب التي تجرّها الحروب، ويأتي بها التعصب والظلم".⁽³⁶⁾ وقد تعلم كنديد - بطل الرواية - من أستاذه بنغلوس هذا المذهب كما صرح فولتير على لسانه، وأن

³² - فولتير: كنديد ص 142.

Fawltür, Qandîd, 142.

³³ - جوتفريد فيلهلم ليينتز: المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي، ترجمة: د. عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة 1978، ص 165.

Jawtafrîd Faylahulam Laybantaz: al-Monâdûlawjiyyâ wa al-Mubâdî al-'Aqaliyyah li Tabî'ah wa al-Faḍal al-'Ilâhî, 'Abd al-Ghaffâr Maḳâwî, Dâr al-Thaqâfah lil Ṭabâ'ah wa Nashar, al-Qâhirah, 1978, Şafḥa: 165.

³⁴ - ليينتز: المونادولوجيا ص 155.

Laybantaz: al-Mûnâdûlawjiyyâ, 155.

³⁵ - ليينتز: المونادولوجيا ص 115.

Laybantaz: al-Mûnâdûlawjiyyâ, 155.

³⁶ - كريون: فولتير ص 90.

Qarayawn: Fawltür, 11.

العالم هو أكمل ما يمكن من العوالم، و"أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما هي عليه؛ وذلك لأن كل شيء إذ صُنِع لغاية، كان كل شيء لأصلح غاية بحكم الضرورة".⁽³⁷⁾

واتبع فولتير في تطور أحداث الرواية أسلوبًا يأتي خلاله بما يهدم كل ما يشير إلى التفاؤل والنظرة الغائية للوجود، فبنغلوس المعلم المتفلسف الذي بالغ في وصف العالم بالكمال، وتبني مذهب التفاؤل تبنياً كاملاً، حتى قال: "عن المصائب الخاصة ينشأ الخير العام، وإن شئت فقل: إن المصائب الخاصة كلما زادت تحسّن كل شيء"⁽³⁸⁾، تُكَيِّب نكبات كبيرة؛ حتى أصابه الزهري، وفقد البصر في إحدى عينيه، والسمع في أذن من أذنيه، كما هاجمت عاصفة شديدة سفينته قبالة ميناء أشبونة (لشبونه)، فغرق من فيها إلا كنديد وهذا المعلم وبخّار السفينة الشرير، في حين غرق رجل محسن كان له فضل على كنديد والمعلم بنغلوس. وأخيراً أحرق هذا المعلم الفيلسوف، ونجا من الموت، ثم مات أخيراً في حال يُرثَى لها، ليتدرج كنديد من الشك في أفكاره التي اهتزت تحت مطرقة هذه الأحداث، حتى انخلع منها تمامًا في النهاية.

وقد أدخل فولتير الحقيقة في الخيال في هدم هذا المذهب، فحكى لنا ما جرى في زلزال لشبونة التي دخلها كنديد والمعلم بنغلوس بعد نجاحهما من حادث السفينة، فيقول: "ولم تكد أقدامهما تطأ مدينة أشبونة باكيين ذلك المنعم عليهما (الذي غرق)، حتى شعرا بزلزلة تحت خطواتهما، ويرتفع البحر فائراً في الميناء، ويحطم المراكب الراسية، وتغطي الشوارع والميادين العامة زوابع من اللهب والرماد، وتنهار البيوت، وتسقط السقف على الأسس، وتفرّق الأسس،

³⁷ - فولتير: كنديد ص 20.

Fawltīr, Ḳandīd, 20.

³⁸ - فولتير: كنديد ص 33.

Fawltīr, Ḳandīd, 33.

وينسحق تحت الأنقاض ثلاثون ألف ساكن من كل سن وجنس".⁽³⁹⁾ وهو وصف مهم لهذا الحادث الذي دفع فولتير إلى تناول قضية الكوارث الكونية، وحاول أن يقدم لها تفسيرًا حسب مذهبه.

– القول با للا غائية وأن الشر أصيل في العالم كالخير:

وهو نقيض المذهب الأول، وأهم شخصيات الرواية التي جسدت هذا الرأي هو معلم متفلسف آخر اسمه "مارتن"، ومن عباراته في الرواية التي عبر بها عن هذا المذهب قوله وهو يخاطب بطل القصة: "إن كل شيء يسير على أسوأ ما يكون، ويزيد حاصل الشر على حاصل الخير كثيرًا... ولا أياس من أن تصبح مانويًا، إن لم تكنه حتى الآن"⁽⁴⁰⁾، والمانوية مذهب ثنوي يؤمن بثنائية الخير والشر في العالم، وأنهما قطبان يدور حولهما نظام الوجود. كما ذهب (مارتن) إلى أن "الإنسان يولد ليعيش في غم مضطرب، أو في سبات من السأم".⁽⁴¹⁾

كما كان أحد الأدباء الحكماء – ممن لم يرد لهم اسم في الرواية – على هذا المذهب كذلك، فقد قال له كنديد وهو مجتمع معه على عشاء فخيم: "سيدي، ترى لا ريب أن كل شيء يسير على أحسن حال في العالم المادي والمعنوي، وأن الأمر لا يكون غير هذا؟"، فأجابه بقوله: "لا أرى هذا مطلقًا يا سيدي، وعكس هذا هو الذي يقع عندنا كما أرى، فلا أحد يعرف مقامه ولا عمله ولا ما يفعل ولا ما يجب أن يفعل. وإذا عدوت العشاء الذي ينطوي على شيء من المرح، وحيث يبدو شيء من الألفة، وجدت ما بقي من الزمن ينقضي بمنازعات ماجنة، فيظهر... رجال البرلمان

³⁹ – فولتير: كنديد ص 36.

Fawltir, Qandid, 36.

⁴⁰ – فولتير: كنديد ص 169.

Fawltir, Qandid, 169.

⁴¹ – فولتير: كنديد ص 136.

Fawltir, Qandid, 136.

ضد رجال الكنيسة، ورجال الأدب ضد رجال الأدب، والندماء ضد الندماء، والمليون ضد الشعب، والنساء ضد الأزواج، والأقرباء ضد الأقرباء، فهذا قتال أزلي".⁽⁴²⁾

وقد أجرى فولتير في الرواية حوارًا أكثر من مرة بين أصحاب هذين المذهبين، ومن ذلك ما جاء ردًا على القول بأن الكوارث تأتي عقوبة لبعض الناس، أي إثبات الغائية في أحداث الوجود، فقد غرق أحد البحارة اللصوص مع عشرات الأشخاص في رواية "كنديد"، فقال بطل القصة: "ترى كيف يعاقب على الجناية أحيانًا! فقد نال هذا الربان الهولندي اللئيم ما يستحق من نصيب"، ولكن رد عليه مارتن بقوله: "أجل، ولكن أكان يجب أن يهلك المسافرون الذين هم على مركبه أيضًا؟! فالرب قد جازى هذا اللص، والشيطان قد أغرق الآخرين"⁽⁴³⁾، وبهذا نفى الغائية عن الوجود، وجعل للشر وجوده الأصيل كما الخير.

- القول بميكانيكية النظام الكوني:

وهو مذهب ساد وما زال في نطاق الفكر المادي الحديث، ومن أصحابه من يثبت وجود الله وأنه خلق العالم ونظامه ثم تركه، ومنهم من ينفي وجود الله تعالى ويؤمن بأن الكون مستقل في آليته هذه، وقد عبر فولتير عن هذا المذهب حين لقي كنديد بطل الرواية مجموعة من المتفلسفة فقالوا له: "إن ديكارت وليبنتز خاليان من حسن التمييز، وأما نحن فعلى مذهب نيوتن، ونفاخر بهذا، وإذا كنا نتجادل فلتقوية مشاعرنا أحسن من قبل، فكلنا على رأي واحد، ونحن ننشد الحقيقة مقتفين أثر نيوتن عن قناعة بأنه رجل عظيم"⁽⁴⁴⁾، وقد كان فولتير مفتونًا بنيوتن وفيزيائه، وتبنى رأيه في

⁴² - فولتير: كنديد ص 102.

Fawltir, Qandid, 102.

⁴³ - فولتير: كنديد ص 93.

Fawltir, Qandid, 93.

⁴⁴ - فولتير: كنديد ص 175.

Fawltir, Qandid, 175.

تفسير مسألة وجود الشر في العالم يعني الإيمان بميكانيكية الوجود، وأن النظام الذي يسير عليه لا يعبأ بشقاء الإنسان ولا بسعادته.

- الموقف الصوفي المسلم لمالك الكون:

وقد اختار فولتير لتبني هذا الرأي درويشًا تركيًّا، فقد اجتمع أبطال الرواية الذين أصابتهم جميعًا سلسلة كبيرة من النكبات والكوارث العظمى، "وكان يوجد في الجوار درويش مشهور معدود خير فيلسوف في تركيا، ويذهبون لمشاورته، ويتناول بنغلوس الكلام، ويقول له: يا أستاذ، أتينا لترجو منك أن تقول لنا سبب خلق حيوان عجيب كالإنسان؟ ويقول الدرويش له: ما دخلك في الأمر؟ أمن شأناك هذا؟ ويقول كنديد: ولكن يا أبت المحترم يوجد شر هائل في الدنيا. ويقول الدرويش: وما أهمية وجود خير أو شر؟ إذا ما أرسل صاحب العظمة سفينة إلى مصر، فهل يبالي بكون الفئران في السفينة مستريحة أم لا؟ ويقول بنغلوس: إذن، ما يجب أن يصنع؟ ويقول الدرويش: أن تقطع لسانك عن الكلام. ويقول بنغلوس: أطمع أن أبحاثك قليلا في المعلولات والعلل، وفي أحسن ما يمكن من العوالم، وفي أصل الشر، وفي طبيعة الروح، وفي النظام المقدّر. فلما سمع الدرويش هذا الكلام أغلق الباب بعنف في وجوههم!".⁽⁴⁵⁾

- مذهب عملي لا يخوض في النظريات أصلا، ويعتبر مسألة القدر سرًّا إلهيًّا لا نخوض فيه:

إحدى شخصيات الرواية عبرت عن هذا المذهب حين عرّفت الحياة بأنها برهة "الزمن المعينة البالغة من الطول عند الحكيم ما يجب معه أن تُستعمل دائمًا فيما فيه خير المجتمع الذي يُتمتع فيه بما صنع الرب القادر من غير أن يُبحث بسخافة عن علّله، وفي تنظيم الإنسان لسيره وفق ما يوحي إليه ضميره، وفي احترام الإنسان دينه على الخصوص،

⁴⁵ - فولتير: كنديد ص 137.

فيكون كثير السعادة باتباع تعاليمه... ويل للكتاب المتهورين الذين يحاولون اكتناه أسرار الرب القادر، فحول مبدأ يريد الرب أن يمجّد به من قبل ألوف الذرات التي أنعم عليها بالحياة، جمع الناس بين الأوهام المضحكة والحقائق المكرمة".⁽⁴⁶⁾

وقد انتهى بطل الرواية إلى هذا الرأي تقريبا، ونفى الغائية والقول بمثالية العالم، وأن الإنسان يجب أن يلتفت إلى حياته العملية ليحقق مصالحه، وسيقابله غالبا خليط من الخير والشر، وانتهى بطل القصة في جزئها الأول إلى وجوب العمل، وترك الجدال النظري، فقال مارتن: "لنعمل من غير برهنة، فالعمل هو الوسيلة الوحيدة التي تطاق بها الحياة"، وقال كنديد في الرد على تفلسف المتفائل بنغلوس: "هذا قول حسن، ولكن يجب علينا أن نزرع حديقتنا"⁽⁴⁷⁾، وختمت الرواية كلها بقول بطلها وصديقه: "لا تسير جميع الأمور سيرا حسنا كما في إلدورادو (وهو المكان الوحيد الكامل وإن كان الوصول إليه شبه مستحيل حسب الرواية)، ولكنها لا تسير كلها سيرا سيئا".⁽⁴⁸⁾

مهما يكن، فقد كانت مسألة القدر ووجود الشر في العالم من الشواغل الفكرية البارزة لفولتير، وقد جددت اهتمامه بها حادثة الزلزال المروع الذي ضرب لشبونه يوم عيد القديسين في الأول من نوفمبر من عام 1755، وبدا فيها شخصا عقلايا تماما، رافضا للقول بالغائية في مثل هذه الأحداث، ومؤكدا أن الأفضل هو الانشغال بالعمل وتجنب أكبر قدر من أضرار الكوارث، تاركين سر القدر مغلقا.

موقف النورسي من الكوارث الكونية:

Fawltir, Qandid, 180.

Fawltir, Qandid, 138.

Fawltir, Qandid, 200.

46 - فولتير: كنديد ص 180.

47 - فولتير: كنديد ص 138.

48 - فولتير: كنديد ص 200.

تتعرض تركيا لهزات زلزالية من وقت إلى آخر في هذه الجهة من جهاتها أو تلك، وقد وقع بعض ما أصابها من هذه الزلازل القاسية في حياة الأستاذ النورسي رحمه الله، فوقع في ولاية أرزنجان التركية زلزال مدمر سنة 1939 راح ضحيته أكثر من ثلاثين ألف شخص، غير مئة ألف من الجرحى والمباني الكثيرة التي تهدمت. وفي عام 1953 ضرب زلزال آخر مدينة إزمير في غرب الأناضول، ومات فيه حوالي ألفين وخمسمئة شخص. هذا سوى هزات متقطعة تتعرض لها هذه المناطق وغيرها من تركيا تعيد عليهم هذه الذكريات الأليمة.

ويبدو من كلام النورسي - كما سيأتي بعد قليل - أن بعض الأصوات علت محاولة تحليل المسألة تحليلًا يثبت العبثية في أحداث الوجود، وأن القول بأي نظرية إيمانية لبيان شيء من الحكمة في الزلازل والكوارث الكونية هو من العبث الذي ينبغي تجنبه!

وقد عرض الأستاذ النورسي رأيه في موضوع الزلزال - وهو يرد على هذه الدعاوى - في صورة أسئلة، بعضها يردّ على شبهة، وبعضها يوضح حكمة، وبعضها الآخر يجلي فكرة، وبدا عليه أثناء ذلك كثير من الغضب في وجه الدعاوى التي أثارها بعض المشككين في تحليل هذه الظاهرة الكونية، وذلك كما يلي:

- الرد على القول بالصدفة ولا غائية الأحداث الكونية:

عرض الشيخ هذا الرأي وناقشه قائلاً: "كيف يمكن أن تكون تلك الحادثة المليئة بالموت بلا قصد ولا غاية كما نشر ملحد، ظنًا منه أنها مجرد مصادفة، مرتكبًا بذلك خطأ فاحشًا ومقترفًا ظلمًا قبيحًا؟ إذ صير جميع ما فقده المصابون من أموال وأرواح هباء منثورًا قاذفًا بهم في يأس أليم. والحال أن مثل هذه الحوادث تدخر دائمًا أموال أهل الإيمان، محوِّلة إياها بأمر الحكيم الرحيم إلى صدقة لهم، وهي كفارة لذنوب ناشئة من كفران النعم"⁽⁴⁹⁾، فبني رأيه هذا على أن

⁴⁹ - النورسي: الكلمات ص 192.

للكون خالقًا قد شاء أن يسلب الناس بعض ما أعطاهم من نعمه، وأنه لا يمكن أن يبتليهم بهذا المصاب الفادح دون أن يكون وراء ذلك حكمة ربانية بليغة، ودون أن تكون لهذا الفقد قيمة، فإن كان المصاب مؤمنًا راضيًا بقضاء الله وقدره، كان ذلك رفعةً لدرجته وتثقيلاً لميزانه، وأما إن كان عاصيًا فإن هذا يكون تكفيرًا لذنوبه.

وهنا يبدو ملمح رئيس في الرؤية الإسلامية لابتلاء الخلق بالمصائب، وهو أن الله يبتلي بها من يشاء من عباده، ولا يكون النظر إلى نتيجتها بنفي الحكمة عنها؛ إذ التصرف الإلهي في كونه بسلب ما أعطى لا يمكن أن يكون بلا غاية، وهل هناك سلب أكبر من الموت؟ ومع هذا يرد الله على خلقه هذه الحياة من جديد.

- مناقشة رأي القائلين بأنه فعل الطبيعة غير العاقلة:

ثم عرض الشيخ وجهًا آخر من وجوه التحليل غير الإيمان لحادث الزلزال، فقال رحمه الله: "يقولون: إنها عوامل طبيعية، إنها انفجار مواد وأخلاق معادن، إنها مصادفات ليس إلا... الجهل المريع الناشئ من الضلال، والتولد المقيت المتولد من الزندقة يحولان دون إدراكهم ماهية الأسباب التي هي حجب وستائر أمام القدرة الإلهية ليس إلا، فترى أحدهم من جهله يبرز أسبابًا ظاهرية، ويقول: هذه الشجرة الضخمة للصنوبر مثلا قد أنشأتها هذه البذرة"، ثم يرد عليهم بقوله عن شجرة الصنوبر: "لو أحيلت إلى الأسباب لما كفت مئة من المصانع لتكوين تلك الشجرة، فإبراز أسباب ظاهرية مثل هذه إنما هو تھوين من شأن عظمة فعل الربوبية الجليلة المفعمة بالحكمة والاختيار".⁽⁵⁰⁾

⁵⁰ - النورسي: الكلمات ص 197-198.

ولعل أهم ما ذكره الشيخ في هذا النص المطول هو أن الأسباب لا ينبغي أن تستر عنا وجود القدرة المبدعة خلف هذا النظام، والدليل على ذلك هو أن الأسباب البشرية ليس في إمكانها أن تقوم بصناعة شجرة واحدة من هذه المليارات الكثيرة التي تملأ الأرض؛ لذا يجب أن نرد النظام إلى الخالق المبدع، وإلى الحكيم الذي حقق هذا التنسيق في الوجود. وفي موضع آخر تمسك الشيخ بالتدخل الإلهي في أدق دقائق الوجود في إثبات بطلان قول الماديين الطبيعيين الذين لا يرون الزلزال سوى مصادفة ونتيجة مادية خالصة؛ فقال ردًا عليهم: "إن كل نوع من آلاف أنواع الأحياء التي تزيد على خمسين مليوناً على الكرة الأرضية، يلبس أقمصته المزركشة المنسقة ويبدلها كل سنة، بل لا يبقى جناح واحد - وهو عضو واحد من مئات أعضاء الذباب الذي لا يُعد ولا يحصى - لا يبقى هذا العضو هملاً ولا سدى، بل ينال نورَ القصد والإرادة والحكمة، مما يدل على أن الأفعال والأحوال الجليلة للكرة الأرضية الضخمة... لا تبقى خارج الإرادة والاختيار والقصد الإلهي، بل لا يبقى أي شيء خارجها؛ جزئياً كان أم كلياً"⁽⁵¹⁾، فمبدع النظام العظيم للوجود يختار لكل مخلوق حاله، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة في كونه، حتى جناح الذبابة - الذي هو عضو واحد من أعضائها وهي حشرة ذات عدد ضخم جداً مما يؤكد ضآلة شأن هذا الجناح - الله هو الذي يحدده ويبدعه؛ ومن يكن هذا شأنه ألا يتدخل في زلزال تهتز له الأرض كلها أو بعض جهاتها!؟

كما رد على دعوى القوم بطريقة أخرى لا تلغي انضباط الوجود وانتظامه، ولكن تجعل وراء فعل الأسباب فاعلاً موجّهاً لها؛ قال: "هب أن الزلزال نشأ فرضاً من حدوث انقلابات المعادن واضطراباتهما، فلا يحدث أيضاً إلا بأمر

51 - النورسي: الكلمات ص 196.

إلهي، ووفق حكمته لا غير"⁽⁵²⁾، وهو اقتراب من رأي من يرى من العلماء القدماء أن الأشياء تفعل، ولكن بإذن الله تعالى⁽⁵³⁾، في مقابل القول بالفاعلية الذاتية للكون، والقول بأن الله فقط هو الفاعل.

- نفي وجود علاقة طردية بين الكوارث وأعمال العباد:

وفي هذه المسألة طُرح على الشيخ السؤال التالي؛ الشبيه بما سبق أن طرحه فولتير، وإن في وضع وسياق ثقافي مختلف؛ قال: "لماذا لا ينزل هذا العذاب الرباني والتأديب الإلهي ببلاد الكفر والإلحاد، وينزل بهؤلاء المساكين المسلمين الضعفاء؟"، وأجاب النورسي بقوله: "مثلما تحال الجرائم الكبيرة إلى محاكم جزاء كبرى، وتُعهد إليها عقوبتها بالتأخير، بينما تُحسَم الجنايات الصغيرة والجنح في مراكز الأقضية والنواحي، كذلك فإن القسم الأعظم من عقوبات أهل الكفر وجرائم كفرهم وإلحادهم، يُوجَل إلى المحكمة الكبرى في الحشر الأعظم، بينما يعاقب أهل الإيمان على قسم من خطيئاتهم في هذه الدنيا"⁽⁵⁴⁾، فكما لا تكون المصيبة حين تصيب الخلق علامةً سخط مطلقاً، فإنها ليست جزاء للعباد مطلقاً؛ لذا قد يترك الله الكافر المجرم الظالم، ويصيب المؤمن المطيع أو العاصي أو الكافر الأقل طغياناً؛ إذ لا علاقة طردية بين هذه السنن الكونية وبين صلاح الخلق وفسادهم، ولو كان الأمر بعكس ذلك للجا الناس إلى ما يحقق لهم النجاة؛ إيماناً كان أو كفرًا.

وهذا المعنى الأخير أكده الشيخ في موضع آخر بقوله: "لو سلم الأبرياء من المصيبة، ولم يمسسهم سوء ولا أذى، لأصبح الإيمان بديهياً؛ أي لاستسلم الكفار والمؤمنون معا على حد سواء، ولانتفى التكليف، وانسد بابه، ولم تبق

52 - النورسي: الكلمات ص 196.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Ṣafḥa:196.

53 - الكمال بن الهمام الحنفي السيواسي: المسيرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المطبعة المحمودية التجارية بمصر 1348هـ/ 1929م، ص 54.

Al-Ḳamāl bin al-Hamām al-Ḥanafī al-Saywāsī: al-Musāyrah fī ‘Ilm al-Kalām wa al-‘Aqā’id al-Tawhīdiyyah al-Munajīyah fī al-Ākhirah, Taḥqīq: Muḥammad Muḥyu al-Dīn ‘Abd al-Ḥamīd, al-Maṭba‘ah al-Maḥmūdiyyah al-Tijāriyyah bi Misr 1348/1929, 54.

54 - النورسي: الكلمات ص 194.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Ṣafḥa:194.

حاجة إلى الرقي والسمو في مراتب الإيمان⁽⁵⁵⁾، وهي سنة من سنن الله في خلقه، فلا ارتباط بين المنافع والمضار وبين الإيمان والكفر؛ إذ لو ربطهما بهما لاختل ميزان التكليف وأساسه، وقد ذكر القرآن هذا في وجه من وجوهه في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْيِيَهُمْ سُفُوفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِيُؤْيِيَهُمْ أَتُونُ بَا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَكْوَنُ. وَزُخْرَفًا...﴾ [الزخرف: 33-35]؛ أي لولا أن يجتمع الناس على الكفر، لوسّعنا على الكفار دنياهم هذا التوسيع الكبير الذي ذكره. وهو إخلال بالنظام الإلهي الذي أراده لهذا الكون لو وقع.

وهذا هو سر القدر⁽⁵⁶⁾ في رأي الشيخ، فقد أصاب الزلزال بعض الأبرياء، ولم يخص المفسدين والظالمين وحدهم، والله تعالى عدل رحيم، فقال الشيخ في بيان ذلك: "إن هذه المسألة متعلقة بسر القدر الإلهي... قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]، وسر هذه الآية ما يأتي: إن هذه الدنيا دار امتحان واختبار، ودار مجاهدة وتكليف، والاختبار والتكليف يقتضيان أن تظل الحقائق مستورة ومخفية؛ كي تحصل المنافسة والمسابقة، وليسمو الصديقون بالمجاهدة إلى أعلى عليين مع أبي بكر الصديق، وليتردى

55 - النورسي: الكلمات ص 195.

Al-Nawrasī: al-Kalimāt, Saḡḡa:195.

56 - ورد فيه حديث صريح: "القدر سر الله، فلا تفضوا الله عز وجل سره"، ولكن ضعفه الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار في تخریج أحاديث الإحياء. إلا أن النهي عن الخوض فيه ورد بالمعنى، حتى قال الشوكاني: "واعلم أنه قد اشتغل كثير من الناس بالسؤال عن سر القدر واستشكال مباحث من مباحثه ولوازم من لوازمه، وهؤلاء مع كونهم قد خالفوا ما وردت به السنة المطهرة من النهي عن البحث عن سر القدر... لم يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لما سُئل عن ذلك طوى بساط التفصيل والتطويل والإطناب والتعليل، واكتفى بقوله: "اعملوا، وكل امرئ ميسر لما خُلق له" محمد بن علي الشوكاني: الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني 2/ 1340، تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الجيل الجديد - اليمن - صنعاء، ب. ت.

Muḡammad bin ‘Alī al-Shawḡānī: al-Faḡḡ al-Rubānī min Faḡāwa al-’Imām al- Shawḡānī, 2/1340, Taḡḡiq: Muḡammad Ṣabḡḡ bin Ḥasan Ḥallaq, Maḡtabah al-Jalīl al-Jadīd, al-Yaman, Ṣan‘ā’, Bā, Tā.

الكتابون إلى أسفل سافلين مع أبي جهل⁽⁵⁷⁾، ثم ذكر سقوط التكليف لو لم تكن قوانين الوجود محايدة كما جاء في الفقرة السابقة.

- عموم البلاء ونسبية النتيجة:

وبالعودة إلى اختلاف أحوال الخلق من تصيبهم النكبات الكونية، ما بين كافر ومؤمن، ومطيع وعاص، ومكلف وغير مكلف، نجد النورسي رحمه الله يقر قاعدة يمكن تسميتها "عموم البلاء ونسبية النتيجة"⁽⁵⁸⁾؛ أي أن ابتلاء الخلق بالنكبات سنة عامة، فلا تقف على لون من الناس دون لون، وما دام الأمر هكذا، فلا ينبغي أن نفهمها على أنها عبثية كونية، بل هي جزء من الناموس الإلهي للوجود والحياة الإنسانية خاصة: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]، ويبقى بعد ذلك أن ننظر في التفاصيل، فنقول: إن إصابة المؤمن بها رفع لدرجته، وإصابة العاصي تذكير وتكفير عن سيئاته، وإصابة الغافل عفو عن غفلته وتنبية له إلى مشاركته لغيره في المعصية بالصمت، وإصابة الكافر إما انتقام من إجرامه أو تخفيف عنه حمل الحساب في اليوم الآخر.

ففي شأن المظلومين المنكوبين يقول: "إن هناك تجلياً للرحمة في ثنايا ذلك الغضب والبلاء؛ لأن أموال أولئك الأبرياء الفانية سُخِّلد لهم في الآخرة، وستدخر صدقة لهم، أما حياتهم الفانية فتتحول إلى حياة باقية بما تكسب نوعاً من الشهادة؛ أي إن تلك المصيبة والبلاء بالنسبة لأولئك الأبرياء نوع من رحمة إلهية ضمن عذاب أليم مؤقت، حيث تمنح لهم بمشقة وعذاب مؤقتين وقليلين نسبياً غنيمة دائمة وعظيمة"⁽⁵⁹⁾، ويُفهم هذا واضحاً حين يقال إن كل مخلوق

⁵⁷ - النورسي: الكلمات ص 194-195.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Ṣafḥāt:194-195.

⁵⁸ - لم يصرح بها، إلا أنها مفهومة من جملة كلامه في هذه القضية.

⁵⁹ - النورسي: الكلمات ص 195، وقارن: النورسي: الملاحق ص 118.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Ṣafḥa:195, Waqāran: Al-Nawrasī: al-Malāḥiq, Ṣafḥa:118.

مصيره الموت ولقاء الله تعالى، وليس الموت آخر شيء حتى يستوفي الناس حظوظهم في الدنيا، والدار الآخرة هي دار الجزاء الحقيقي: ﴿وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 185].

وما دام اللقاء بالله حتميًا، والحساب والجزاء كذلك، فلماذا لا نرى البلاء حين ينزل على العبد ويقبله راضيًا به، خيرًا له في عاقبته قبل أن يكون عامل ثبات له في دنياه؟! ويمكن قياس ذلك على من يموت مقهورًا مظلومًا مستباح الحرمة على يد غيره من الظالمين، فإن الله تعالى يورثه الجنة، ويعاقب هذا الظالم على ما اقترف. فالله تعالى قد أعطى هذا المظلوم من فضله، وإن لم يكن ما وقع له نتيجة حادث كوني أو ما أشبه ذلك، فإن لحقه الضرر تحت صولة الزلازل وغضبة البراكين والأعاصير، فهو بالأولى أن يعوضه صاحب هذا الكون الذي يسيره كيف يشاء.

وماذا عن غير المؤمنين ممن لم يرتكبوا ظلمًا ضد الخلق، وأصابهم الزلزال، أو الكارثة الكونية، أو حتى هلكوا بفعل الحروب التي يثيرها الناس؟ نجد إجابة الشيخ على هذا في سياق آخر؛ إذ كانت تؤلمه تلك المظالم الفادحة التي تلحق بالمؤمنين؛ خاصة أطفالهم ونساءهم، إلا أنه أنس إلى أنهم يعوّضون عن كل ما فقدوه بما هو خير منه، ثم أضرب وقال: "بل حتى لو كان أولئك المظلومون كفارًا، فإن لهم من خزينة الرحمة الإلهية مكافآت كثيرة بالنسبة لهم، مقابل ما عانوا من البلاء في الدنيا، بحيث لو رُفع ستار الغيب فإن ما ينالونه من رحمة ظاهرة يدفعهم إلى أن يلهجوا بالشكر والحمد لله" (60)، وهذا النص مشكل جدًّا في الحقيقة، إلا أنه يمكن فهمه على أن الكافر الذي يتجنب ظلم الناس، إن أصابه شيء من بلاء الدنيا، فإن الله تعالى يخفف عنه بقدره من عذاب يوم القيامة، وإن كان ممن لم تصلهم دعوة الإسلام صحيحة، ولم تقم عليه الحجة في ذلك، فإنه يحسب على أنه من أهل الفترة، والله أعلم.

60 - النورسي: الملاحق ص 118.

وأما العصاة الذي يحتاجون إلى مذكّر قوي، أو حجة فاهرة تردهم إلى الصواب، أو لا تترك لهم حجة على الله، فيقول عنهم: "لقد أذاقت هذه الزلزلة العظيمة الناس مصيبة معنوية أدهى من مصيبتها المادية الفجيعة، تلك هي الخوف والهلع واليأس والقنوط التي استولت على النفوس، حيث إنها استمرت ودامت حتى سلبت راحة أغلب الناس ليلاً، وعم القلق والاضطراب أغلب مناطق البلاد. تُرى ما منشأ هذا العذاب الأليم؟ وما سببه؟... إن مما يُقترَف في أرجاء هذه البلاد - التي كانت مركزاً طيباً للإسلام - من مجون وعريضة جهازاً نهاراً، وفي شهر مبارك جليل كشهر رمضان، وفي أثناء إقامة صلوات التراويح، وإسماع الناس أغاني مثيرة بأصوات نساء، وأحياناً من الراديو، وغيرها - قد وُلد إذاعة عذاب الخوف والهلع هذا". (61)

وفي عصاة المؤمنين الذين أصابتهم الزلزلة قال كذلك: "إن هناك أمارات كثيرة على أن هذه الحادثة استهدفت أهل الإيمان؛ إذ وقوعها في قارس الشتاء وفي ظلمة الليل وفي شدة البرد، وخاصة في هذه البلاد التي لا يُحترَم فيها شهر رمضان، واستمرارها الناشئ عن عدم اتعاظ الناس منها، ولا يقاظ الغافلين من رقدتهم بخفة، وأمثالها من الإمارات تدل على أن هذه الحادثة استهدفت أهل الإيمان، وأنها تتوجه إليهم، وتزلزلهم بالذات لتدفعهم إلى إقامة الصلاة والدعاء والتضرع إليه سبحانه". (62)

وأما الكفار والمفسدون في الأرض، فقال فيهم: "صنع رب العالمين البشرية ببلايا وآفات عامة مرعبة؛ كالحرب العالمية، والزلازل، والسيول العارمة، والرياح الهُوج، والصواعق المحرقة، والطوفانات المدمرة؛ كل ذلك إيقاظاً لهذا الإنسان السادر

⁶¹ - النورسي: الكلمات ص 193.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Şafḥa:193

⁶² - النورسي: الكلمات ص 199.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Şafḥa:199

في غفلته، وسوف له ليتخلى عن غروره وطغيانه الرهيب، ولتعريفه بربه الجليل الذي يُعرض عنه، فأظهر سبحانه حكمته وقدرته وعدالته وقيوميته وإرادته وحاكميته إظهارًا جليًا". (63)

- فلسفة القدر:

لم تخل معالجة الشيخ النورسي لقضية القدر والكوارث التي تصيب الناس من رؤى فلسفية عميقة، مع أنه الرجل العملي الذي يسعى إلى أن يضيء بأنوار القرآن عقول الناس وقلوبهم وجوارحهم، ومن هذه الأفكار: رؤيته للكون في جملة، وأن وجود بعض القبح والشر في بناء حسن وخير مثل هذا الوجود الكبير، لا ينبغي أن يدفعنا إلى اتهام النظام كله بالخلل، أو القول بأنه ليس له صانع يدبر أمره، ولا مانع من أن يكون هذا الشر الطارئ تأديبًا لبعض عناصر الوجود المفسدة. (64)

كما أن الشدائد والابتلاءات لديه تمثل نوعا من التجدد الكوني، بعيدًا عن الاضطراد الذي لا يخزقه شيء، يقول: "الوجود خير محض، والعدم شر محض، والدليل هو رجوع جميع المحاسن والكمالات والفضائل إلى الوجود، وكون العدم أساس جميع المعاصي والمصائب والنقائص. ولما كان العدم شرًا محضًا، فالحالات التي تنجرّ إلى العدم، أو يُشم منها العدم تتضمن الشر أيضًا؛ لذا فالحياة التي هي أسطع نور للوجود، تتقوى بتقلبها ضمن أحوال مختلفة، وتتصفي بدخولها أوضاعًا متباينة، وتثمر ثمرات مطلوبة باتخاذها كيفيات متعددة". (65)

63 - النورسي: الكلمات ص 197.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Şafha:197

64 - النورسي: الكلمات ص 195-196.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Şafhāt:195-196.

65 - النورسي: الكلمات ص 544-545.

Al-Nawrasī: al-Ḳalimāt, Şafhāt:544-545.

ومهما يكن من أمر، فقد خاض كل من الفيلسوف الفرنسي فولتير والداعية التركي المجدد بديع الزمان النورسي في خضم قضية القدر خوضًا حذرًا، وأنتجا في هذا السياق بعض الأفكار المهمة التي عُني هذا المقال بإيضاحها، وامتاز فولتير بالعقلانية في معالجة المسألة، في حين جمع النورسي بين العقل والنقل في فهمها، ونأتي الآن إلى تعقيب نختتم به هذه السطور، وأجمع فيه بين المقارنة والنتائج.

- تعقيب:

لعله قد ظهر مما سبق الاتفاق الواضح بين النورسي وفولتير على أن القدر سر صعب إيضاحه أو كشفه، وقد أراح المفكر الفرنسي نفسه من هذه المسألة بأن تبني مع بطل روايته "كنديد" موقف الإعراض عن الخوض في هذا السر - بعد صولات وجولات في الحياة والأفكار - والانشغال بالعمل على تحقيق المنافع وفق القوانين والقواعد التي يحيا عليها الإنسان، بعد أن عرض الآراء الأخرى في القدر على لسان شخصيات الرواية ومن خلال أحداثها. إلا أنه لما كانت هذه المسألة متعلقة بالاعتقاد، وهو ركيزة الانطلاق العملي الآمن في الحياة، فلم يكن بوسع الأستاذ النورسي الإعراض عن بيانها والخوض في عمقها الفلسفي، ولهذا اختلف الرجلان في هذا الجزء اختلافًا كبيرًا. كذلك لم يكن الخوض في الجانب النظري لقضية القدر عند النورسي، وتبني رأي واضح فيها، لم يكن هذا يعني أن يغض الطرف عن الجانب العملي وأهميته، بل إن هذا الجانب العملي هو جزء أصيل من نظريته في القدر، الذي لا ينفصل عنده عن مواقف العباد وأعمالهم وصلاتهم وفسادهم، كما لا يخلو من نظرة تنبؤية لهم من غفلاتهم؛ حتى يستقيموا في حياتهم العملية.

ولعل مما يلفت النظر في المقارنة بين الرجلين هنا أيضًا: أنهما مؤمنان بوجود الله تعالى وخلقته للعالم، إلا أن اللطف الإلهي بخلقهم، وتقديره سبحانه لكل كبيرة وصغيرة في الكون مما انفرد بإثباته النورسي دون صاحبه؛ لذا لم ير فولتير في الكون غائية ولا في أحداثه حكمة كالذي بدا للنورسي جليًا كل الجلاء.

ومن هنا نجد ما يعرضه فولتير لإثبات عدم الحكمة في "أفعال الطبيعة" بسبب شمول الزلازل للمصالحين والفاستدين والأبرياء من الأطفال والنساء، نجده عند النورسي جزءًا من رؤيته الإيمانية للقدر، وأن عموم المصيبة يعني عموم البلوي، لكنه لا ينفي خصوص النتائج وتفاوتها من شخص إلى آخر.

ولا شك أن موقف النورسي من هذه المسألة بدا متماسكًا أكثر من موقف فولتير؛ لأن بجيع الزمان اعتمد على دقة بناء الكون، وحكمة خالقه في إثبات تدخله فيه، وتقديره لما يجري في جنباته.

والله ولي التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل

المراجع:

أندريه كريون: فولتير حياته - آثاره - فلسفته ، ترجمة: د. صباح محبي الدين، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت - باريس 1984.

'Andariyyah Ḳarayawn: Fawltir Ḥayātaḥu-Āthāraḥu-Falsafatuhu , Tarjumah: Dr Ṣabāḥ Muḥyu al-Dīn, al-Ṭab'a al-Thāniyyah, Manshūrāt 'Awīdāt, Beirūt, Barays 1984.

الكمال بن الهمام الحنفي السيواسي: المسيرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة، تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد، المطبعة المحمودية التجارية بمصر 1348هـ/ 1929م.

Al-Ḳamāl bin al-Hamām al-Ḥanafī al-Saywāsī: al-Musāyarah fī 'Ilm al-Kalām wa al-'Aqā'id al-Tawḥīdiyyah al-Munajīyah fī al-Ākhirah, Taḥqīq: Muḥammad Muḥyu al-Dīn 'Abd al-Ḥamīd, al-Maṭba'ah al-Maḥmūdiyyah al-Tijāriyyah bi Misr 1348/1929.

بدیع الزمان النورسي: سيرة ذاتية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحی، الطبعة السادسة، شركة سوزلر - القاهرة
2011.

Badī' al-Zamān al-Nqwrāsī: Sīrah Dhātiyyah, 'Idād wa Tarjumah: 'Iḥsān Qāsim al-Şālayḥī, al-Ṭaba'ah al-Sādīshah, Shariḳah Sūzlar, al-Qāhirah, 2011.

بدیع الزمان النورسي: المكتوبات ، ترجمة: إحسان قاسم صالحی، الطبعة السادسة، شركة سوزلر - القاهرة 2011.

Unzur: Badī' al-Zamān al-Nqwrāsī: al-Maḳtūbāt, Tarjumah: 'Ayḥsān Qāsim al-Şālahī, al-Ṭaba'ah al-Sādīshah, Shariḳah Sūzlar, al-Qāhirah, 2011.

جوتفريد فيلهلم ليبنتز: المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي ، ترجمة: د. عبد الغفار مكاوي، دار
الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة 1978.

Jawtafrīd Faylahulam Laybantaz: al-Mūnādūlawjiyyā wa al-Mubādī al-'Aqaliyyah li Ṭabī'ah wa al-Faḍal al-'Ilāhī, 'Abd al-Ghaḥfār Maḳāwī, Dār al-Thaqāfah lil Ṭabā'ah wa Nashar, al-Qāhirah, 1978.

رسالة في التسامح، ترجمة: هنريت عبودي، الطبعة الأولى، دار بتر للنشر والتوزيع - دمشق 2009.

Risālah fi al-Tasāmayh , Tarjumah: Hanriyyat 'Abūdī, al-Ṭaba'ah al-'Uawla, Dār Bitarā Lil Nashr Wa al-Tawzī', Damishq, 2009.

فولتير: رسائل فلسفية ، تقديم: جون لاي، ترجمة: عادل زعيتر، الطبعة الأولى، دار التنوير - بيروت 2014،

Fawltīr: Rasā'il Falsafīyyah, Taqḍīm: Jawn Lāi, Tarjumah: 'Adil Za'ītar, al-Ṭaba'ah al-'Ula, Dār al-Tanwīr, Bayrūt, 2014.

فولتير: كنديد، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هندواي سي آي سي - المملكة المتحدة، 2018.

Fawltīr: Ḳandīd, Tarjumah: 'Aādil Za'ītar, Maw'assasah Handāwī Cī Āi Cī, al-Mumliḳah al-Mutaḥadah 2018.

سليم سعدة: فولتير، سلسلة كتاب اقرأ 72، دار المعارف - مصر 1948.

Salim Sa 'ada: 'Iqra' 72, Dār al-Mu'ārif, Mişr, 1948.

محمد بن علي الشوكاني: الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني 2 / 1340، تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق،
مكتبة الجيل الجديد - اليمن - صنعاء، ب. ت.

Muḥammad bin 'Alī al-Shawḳānī: al-Faṭḥ al-Rubānī min Fatāwa al-'Imām al- Shawḳānī, 2/1340, Taḥqīq: Muḥammad Şabhī bin Ḥasan Ḥallaq, Maḳtabah al-Jalīl al-Jadīd, al-Yaman, Şan'ā', Bā, Tā.

مصطفى أدرودور: محطات بارزة من التاريخ المعاصر وأثرها في حياة النورسي ومدرسته الفكرية. بحث منشور في مجلة
النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد 15، يناير 2017، السنة الثامنة.

Muştufā 'Adardawr: Muḥtāt Bārazah min al-Tārīkh al-Mu'āşir wa 'Athrihā fi Ḥayāt al-Nawrasī wa Madrasatah al-Fiḳriyyah. Baḥath Manshūr fi Majallah al-Nūr lil Darāsāt l-Ḥaḍāriyyah wa al-Fiḳriyyah, al-'Adad 15, Yanāir 2017, al-Sinah al-Thāminah.

ول وإيريل ديورانت: قصة الحضارة 36، ترجمة: محمد علي أبو درة، مراجعة: علي أدهم، دار الجيل - بيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس.

Will Iayrial Durānt: Qiṣṣah al-Ḥiḍārah, Tarjumah: Muḥammad ‘Alī ‘Abū Darah, Murāja‘a: ‘Alī ‘Adham, Dār al-Jayl- Bayrūt, Wa al-Manẓamah al-‘Arabiyyah lil Tarbiyyah wa al-Thaqābah wa al-‘Ulūm, Tawnas.